نقدُ أُسس التَّمييز العُنصري بالرُّؤية القرآنيّة[1]

- **أكرم حيدري**[2]
- **طاهره جوكار**[3]
- **المترجم**: **محمد فراس الحلباوي**[4]

ملخّص

يتطرَّق هذا البحثُ إلى دراسة أُسس التَّمييز العُنصريِّ، وعرض الرُّؤية القرآنيّة النّاقدة والمُفنِّدة لهذه الأُسس. فمن أُسس التَّمييز العُنصريِّ الأهمِّ، الاستعلاءُ في اتِّخاذ لون البَشرة أو اللُّغة أو الثَّروة أو كثرة الأولاد أو السُّلطة أو الدِّين أو المَنطقة الجغرافيّة معيارًا لهذا التَّمييز. وفي هذا المقال تُحلَّل كلُّ هذه العوامل بالتَّفصيل، فضلًا عن النَّقد والتَّفنيد. كذلك تَردُ في هذا البحث انتقاداتٌ مُستندةٌ إلى الآيات القرآنيّة لأُسَّين آخَرَين هما التَّمييزُ والتكبُّر، وهُما من العوامل الرَّئيسة في التَّمييز العُنصريّ.

الكلمات المفتاحية: القرآن، التَّمييز العُنصري، الاستعلاء، التَّمييز، التكبُّر.

1 - فصلية الدراسات القرآنيّة، السنة السادسة، العدد 21، ربيع العام 2015، ص 107-122.

2 - طالبة دكتوراه قسم علوم القرآن والحديث، جامعة كاشان.

3 - طالبة ماجستير قسم علوم القرآن والحديث.

4 - دكتوراه لغة فارسية وآدابها، محاضر في جامعة دمشق.

مقدِّمة

يُمكن عَدُّ الفكرِ العُنصريِّ للشَّـيطان نقطةَ البَدءِ لظاهرةِ التَّمييز العُنصريِّ. فاستعلاءُ الشَّيطان على الإنسان أدَّى إلى تمرُّده وعصيانه لأمرِ الله.[1] وهكذا فقد كانَت النُّقطةُ الأولى للعُنصريةِ أنواعًا من التَّفاخُرِ والاسـتعلاء. ففي التاريخ، عَدَّ كلُّ قوم وجماعة أنفسَـهم مُتفوِّقينَ على الجماعاتِ والأقوامِ الأخرى لأسباب مختلفة، وبناءً عليه وَضعوا لأنفسهم مبادئَ وأصولاً ساروا عليها، ورأَوا أنَّهم يَستحقُّونَ الانفصالَ عن الجماعات الأخرى والتَّميُّزَ عنها. ولمواجهةِ هؤلاءِ الأفرادِ بأسلوب صحيحٍ وعقلانيٍّ، وليس تَبعًا للعواطفِ وانجرارًا لها، يَنبغي مقارنةُ مَعاييرِ التميُّزِ والعلوِّ في رؤية بعض البَشر بمَعاييرِ التفوُّقِ لدى الله، ونَقـد المَعايير الخاطئة. وبالنِّهاية، أنْ يُناضِلَ النّاس ضدَّ الأفكار العُنصرية بحُكمٍ صائبٍ ورُؤية واعية.

يَهدف هذا البحثُ، من خلالِ دراسة أسُس العُنصُريِّينَ، إلى تَقديم حلٍّ قرآنيٍّ لمواجهةِ ظاهرةِ العُنصريّة، ومن خلال دراسـة أسُـس العُنصريّة، يَسـعى إلى تَجريدِ أيِّ فكـرٍ عُنصريٍّ من قوّته. لذلك، تَجري دراسـةُ ثلاثة أسُس رئيسة للعُنصريّة، وهي الاسـتعلاءُ والغرورُ والتكبُّرُ والتَّمييزُ، التي حَظيت باهتمامِ القرآنِ ونَقدِه.

أولًا: الاستعلاء

يُعدُّ مبدأُ الاسـتعلاءِ أحدَ أهمِّ مبادئ العُنصريّة وأسُسـها، فالعُنصريّةُ هي اعتقادُ مجموعةٍ عِرقيّة بأنَّها مُتفوِّقةٌ على المَجموعات العِرقيّة الأخرى. في بعض الأحيان، قد تُصبح الحدودُ الجغرافيّةُ سببًا للاستعلاء، وأحيانًا العِرقُ وتارةً أخرى الدِّين. لكنَّ القرآنَ لا يُولي أهمِّيةً للحدودِ الجُغرافيّةِ والعِرقيّةِ والطَّبقيّةِ وما شابَه

١ - الأعراف، الآية ٧.

ذلــك ممّا يَفصلُ الناسَ بعضَهم عن بعضٍ، بل يَعدُّ العاملَ الوحيدَ هو عامل «الإيمان» و«الكفر»، وبهذه الطَّريقة يَقسم المُجتمعَ الإنسانيَّ بأكمله إلى مَجموعتَين: مجموعة «الإيمان» و «الكفر».

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[التغابن، الآية ٢].

يُلاحَظ فرقٌ واضحٌ بــينَ المَعايير التي تَختارُها البشريّةُ للتَّفاضلِ فيما بينَها وبينَ مَعايير التَّفاضــلِ التــي يُبيِّنُها اللهُ. لقد طُرحت النَّزعةُ إلى الاســتعلاءِ أولَ مرّةٍ مــن قِبَلِ إبليسَ، ويمُكن عدُّهــا جَذرًا للعَصبيّات العرقيّة والاســتعلاءات الزّائفة في المجتمع. ويقــول القرآنُ الكريمُ في هذا الشّأن: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِــينَ﴾[ص، الآيــة ٧٥]. وقوله -تعالى-: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَــنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف، الآية ١٢].

في الواقع، إنَّ ما أدَّى إلى نزعة الاســتعلاء لدى الشَّــيطان هو تَوهُّمُ التَّفوُّق في الخَلق؛ إذ كانَ يَعدُّ المادّةَ الأوَّليّةَ لخَلقه، وهي النارُ، أفضلَ من المادّة الأوَّليّة للإنســان. ومن هنا نشأ استعلاؤُه وغُرورُه. إنَّ اســتعراضَ خلفيّات الاستعلاء ومعاييرها يَكشف أنَّ معاييرَ التفاضُلِ بينَ البشر هي العِرقُ، ولــونُ البشرة، واللُّغة، والثَّروة، وكثرةُ الأبناء،و السُّــلطة، والدِّيــنُ، والمَنطقة الجغرافية. لذلك، من الضَّروريِّ دراسةُ كلِّ واحد من هذه المَعايير.

وبما أنَّ العلماءَ القدماءَ كانوا يَعدُّونَ الصِّفات والسِّمات الخُلُقيّة والاجتماعيّةَ والفنيّةَ والعلميّةً موروثةً في الغالب، فقد كانَت كلمةُ «عِرق» تَشمل الخصائصَ الاجتماعيّةَ والثَّقافيةَ والعلميّة أيضًا. في أوائل العصر الإســلاميِّ، وبعد فترة وجيزة من وفاة النبيِّ محمد ﷺ، عادَت أســواقُ التَّفاخُر والاســتعلاءِ إلى الازدهار مرّةً أخرى في أوســاط العرب في العَصر الأمويِّ، إلى درجة أنَّ المَوالي (المســلمين من غير العرب) كانوا في العَصر الأمــويِّ أذلّاءَ وخُدّامًا للعرب، ولم تكنْ في أيديهم وظائفُ ومَناصبُ مُهمّةٌ. وكان العربُ المســلمونَ يَتباهَونَ على المسلمين غير العَرب (المَوالي) قائلينَ: لم نكتفِ بتَحريركُم من العُبوديّة والأسْر، بل أنقذناكم من اتِّباع الكُفر والشِّرك وأسلمْناكُم، وهذا يَكفي لنكونَ أفضلَ منكم. لقد أسعَدْناكم بالسَّيف وجَرَرناكُم بالسَّلاسل إلى الجنّة.[1]

وكان بَنــو أميّةَ يَعدُّونَ توظيفَ المَوالي عارًا عليهم، ويتجنَّبــونَ الاختلاطَ بهم ومُعاشرتَهم، ويَــرونَ أنَّ التَّعامُــلَ مع المَوالي دليلٌ على الدَّناءة والخِسّــة. فقد كان العــربُ يُنادونَ المَوالي

١ - جرجي زيدان، تاريخ تمدن اسلام [تاريخ الحضارة الإسلامية]، ج٤، ص٧٣.

بأسـمائهم وألقابهم، ولا يُنادونَهم بأيِّ حالٍ من الأحوال بكُنيتهم، ولا يمَشون معهم في صفٍّ واحـد، وإذا مات عربيٌّ لم يكنْ باسـتطاعة المَـولى أن يُصلِّيَ على جنازته مـع الآخَرينَ، وإذا أُقيمَت وليمةٌ لم يُجلسـوا المَولى - وإن كان فاضـلاً وذا تَقوى- على المائدةِ حتّى يَعلم الناسُ أنَّـه ليـسَ عَربيًّـا.[1]

في الواقع، كان أحدُ شـعارات الإسـلام محاربةَ العُنصريّة ومَظاهرَ الأرسـتقراطيّة، وكان أوَّلُ المؤمنينَ بالنَّبيّ محمد ﷺ عبيدًا مثل ياسر وسُـميّة وبلال الذين عظَّمَهُم النبيُّ ﷺ. وقـد رُوي في هذا الصَّدد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «يا أيُّها الناسُ، إنَّ ربَّكُم واحدٌ، وأباكم واحدٌ، كلُّكُـم لآدمَ، وآدمُ من تـرابٍ، أكرمُكُم عندَ الله أتقاكُم، ليس لعـربيٍّ على أعجميٍّ فضلٌ إلا بالتَّقوى»[2].

إنَّ لـونَ البشرة هو أحدُ الفُروق البارزة التي تُـرى بالعَين المُجرَّدة بينَ البشر في البداية، وعلى مرِّ التاريخ كان اللَّونُ أحدَ مَعايير التفوُّق على الأفراد الآخَرينَ الذين لديهم لونُ بشرةٍ آخَرَ، وأكبرُ ضَحايا هذه النَّزعة القائلة بتفوُّق لون على لون آخَرَ على مرِّ التاريخ البَشريِّ هم السُّـودُ، فمُعاناةُ السُّود وظُلمُهم في عُمق التّاريخ لا يُمكن وصفُها. عندَما تُطرحُ قضيّةُ السُّود في الزَّمن المُعاصر، فإنَّنا نواجه إحصائيات كبيرةً من الخَسائر والضَّحايا والمَصالح والمَنافع والصِّراعات والنِّزاعات، ويَعودُ هـذا إلى أنَّ الرَّغبةَ العامّةَ لـدى بعض الأمريكيِّينَ كانَت دائمًا تَعتمـد على فكرة أنَّهم إذا لم يَنجحوا في تَبييض الوجه الأسـود، فعَليهم على الأقلِّ أن يَجعلوهُ عديمَ اللَّون، ويَسـلبوا منه هويّتَه الإنسانيّةَ. ولقد أخبرَ اللهُ -سبحانه وتعالى- عن هذه المسألة في القرآن الكريم قبل حوالي ١٤٠٠ عـام، ولكيلا يتأجَّجَ هذا الجرحُ في المجتمع، قال -تعالى- في الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[الحجرات، الآية ١٣].

تناولَت هذه الآيةُ هذه المسألةَ، ففيها يُخاطبُ اللهُ جميعَ الناس ويَقول لهم: إنّا خلقناكُم جميعًا من ذكرٍ وأنثى. فالإنسـانُ لو كان قد فكَّرَ وعَلِمَ بأنَّ اللـهَ الواحدَ هو خالقٌ لجميع البَشر، فإنَّه لن يَسـعى بعدَ ذلك إلى إيجادِ أسبابٍ للتميُّزِ على الآخَرينَ. في هذه الآيةِ، يُرفَضُ أيُّ تفاضُلٍ مطلَقٍ

١ - جرجي زيدان، تاريخ تمدن اسلام [تاريخ الحضارة الإسلامية]، ج٤، ص ٧٣.
٢ - محمدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج٤، ص ٢٩-٣٦.

مَردُّه الطَّبقاتُ، أو لونُ البَشرة البَيضاء أو السَّوداء، أو العَربيّة أو الأعجميّة، أو الفَقر، أو العُبوديّة، أو السِّيادة، أو الذُّكورة أو الأنوثة. وتقول الآيةُ إنَّنا إذا جعلناكُم شعوبًا وقبائلَ مُختلفةً، فليس لكي تكـونَ طائفةٌ منكم مُتسـلِّطةً أو ذاتَ كرامةٍ على الآخَرينَ، بل لمُجـرَّدِ أن تتعارفوا، وتَجري أمورُ اجتماعِكم ومُعاملاتكم بأحسن حال.[1]

يقـول الله -تعـالى- في الآية الكريمـة: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْـقُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[الروم، الآية ٢٢].

إنَّ اختلافَ الألوان والألسـنة من آيات اللـه، والاختلافُ بينَ الأعراق واللُّغات هو دليلٌ على مَعرفة الله؛ فالإنسانُ العالمُ الفاهمُ يَصلُ إلى معرفة الله من خلال اختلاف الألوان واللُّغات، أمّا الجاهلُ فيَتَّخذُ اللَّونَ واللُّغةَ وسيلةً للإهانة والتَّفاخُر.[2] في هذه الآية، يُذكَر اختلافُ اللَّون واللُّغة إلى جانب آيات أخرى مثل خلق السَّـماوات والأرض، ولا أحدَ يَعتبرُ خلقَ السَّماوات والأرض سببًا لتفوُّقه، لأنَّه علامةٌ من علامات قدرة الله. لقد وضعَ اللهُ تَبايُنًا واختلافًا بين هذه الأشياء، حتى إنَّ أيَّ شخصين يتحدَّثان لا يتَّفقان في أيٍّ من خصائص الكلام وطريقة الصَّوت، وهذا الاختلافُ موجودٌ في شكلِ الوَجه وخُطوطه، وفي الألوان وأنواعها. وبسبب هذا الاختلاف والتَّبايُن يُتعرَّفُ على الأفراد، وهذه الاختلافاتُ ليسَـت دليلاً على تفوُّق أحد على الآخَر، بل إنَّ الله قد أعلنَ أنَّ سببَ الاختلاف هو آياتٌ ودلالاتٌ وعلاماتٌ في قوله ﴿**إِنَّ فِي ذَالِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[3].

وفي كلام الأئمَّـة المَعصومـينَ أيضًا، وردَ كثيرٌ مـمَّا يدلُّ على أنَّهم لم يَـروا التفوُّقَ والفضلَ في اللَّون. فعلى سـبيل المثال، سـأل شـخصٌ الإمامَ الصّادقَ عليه السلام: لماذا بعضُ أبناء آدمَ فاضلٌ وشريفٌ، وبعضُهم مَفضولٌ؟ فقال: الشَّريفُ مَن أطاعَ اللهَ، والوَضيعُ مَن عَصاهُ. وقال بما معناهُ: الفضلُ إنمَّا هو في ضوءِ التَّقوى. فسألَه أتقولُ إنَّ أبناءَ آدمَ مُتساوُونَ جميعًا في الأصلِ والعِرق، ولا فضـلَ لأحدِهم على الآخَر من جهة العِرق؟ فقال: نعم، خُلقت النّاسُ جميعًا من ترابٍ، وأبوهم آدمُ وأمُّهم حواءُ، وقد خلقَهم اللهُ الواحدُ، وهم عِبادُه.[4]

---

١ - محمد حسين طباطبايي، تفسير الميزان، ج١٨، ص٤٨٨؛ نصرت أمين أصفهاني، مخزن العرفان در تفسير القرآن [مخزن العرفان في تفسير القرآن]، ج١٠، ص٩١.

٢ - محسن قرائتي، تفسير النور، ج٩، ص١٩٠

٣ - أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج٣، ص٢٦٣.

٤ - محمد باقر بن تقي، المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، ج١٠،

وكذلك في سيرة النبيِّ الأكرم ﷺ أنَّه اختارَ بلالاً الحبشيَّ، وهو عبدٌ أسودُ اللَّون، ليكون مُؤذِّنًا. وفي الدِّينِ الإسلاميِّ الحنيفِ لا فرقَ بينَ البشرِ لا من حيثُ اللّونُ ولا من حيثُ العبوديّةُ والحُريّة. لقد حاربَ الإسلامُ هذه العَصبيّةَ الجاهليّةَ بكلِّ تمثّلاتها وصُورها، وأقامَ نظامًا إنسانيًّا تحتَ رايةٍ واحدةٍ هي رايةُ الله، ورفضَ جميعَ رايات القوميّةِ والوطنِ والبيتِ والجنسِ والبَشرة[1].

وثمّةَ معيارٌ آخَرُ للتَّمييزِ بينَ بعضِ الناس، وهو اللُّغة التي يتحدَّثونَ بها، وقد كانَ لها دورٌ مُهمٌّ بينَ الأمم منذُ القِدَمِ. فالنَّاسُ الذين يتحدَّثونَ اللُّغةَ نفسَها يُمكنهم فهمُ بعضِهم بعضًا بشكلٍ أفضل. وفي المناطقِ التي تتصارعُ فيها المَصالحُ الوطنيّةُ لدَولتَينِ وتكونُ بينَهما خلافاتٌ، إذا كانَت لغةُ هاتَينِ الدَّولتَينِ مُختلفةً، فإنَّ الدَّولةَ التي تتحدَّثُ تلك اللُّغةَ تَعدُّ أسماءَ المُدن والأنهارِ والجبال وغيرِها من الأمور موضعَ الخلاف من أولوياتها لتتفوَّقَ من خلالها على الدَّولةِ الأخرى.[2] إنَّ الكمَّ الهائلَ من اللَّومِ والنَّقدِ المُتعلِّق بالكتابة والكلام الأجنبيِّ يُغنينا عن استخدام كلمةٍ جديدة؛ فمثلاً، يَقول الناسُ للتَّعبير عن عدم القُدرةِ على التَّواصُلِ اللُّغويِّ مع الآخَر: «هذا عربيٌّ» أو «هذا صينيٌّ» أو «هذا يونانيٌّ»، وهي عباراتٌ قابلةٌ للاستبدال تمامًا. وكما نَرى، في هذه العباراتِ أصبحَت اللُّغةُ أداةً رئيسيّةً للعَداءِ للأجانبِ إن لم نقلْ للتَّمييزِ العُنصريّ.

لم تكنْ لغةُ أيِّ أمّةٍ على صورتها الحاليّةِ منذُ بداية تكوينِها، بل بعدَ اجتماعِ قلوبِ الجماعة وتَلاحُمِها في أرضٍ مُعيّنة، نشأتْ لغتُهم معَهم وتطوَّرَت، وتوسَّعَت قواعدُها وأصولُها، وعلى مرِّ القرونِ حصلَ لها تغييراتٌ وتحوُّلاتٌ مُستمرّةٌ من خلال الاحتكاك بلُغات الأُمم الأخرى، حتّى وصلَت إلى ما وصلَت إليه في هذا الزَّمن.[3] إنَّ اعتقادَ أمَّةٍ ما بتفوُّقِها وتميُّزِها، بمُجرَّد امتلاكها وتحدُّثِها بلغةٍ تَعتقدُ بأنَّها كانَت منذ البدايةِ كاملةً ومتطوِّرةً، هو نظريّةٌ خاطئةٌ تمامًا. فتَقسيم اللُّغاتِ هو أمرٌ متَّفقٌ عليه بينَ جميعِ اللُّغويِّينَ.

لكنْ في كلامِهم لا يُشاهَدُ ترجيحُ لغةٍ على أخرى، لكنّ شعبَ كلِّ دولةٍ يتصوَّرُ أنَّه الأفضلُ والأذكى بينَ الناسِ على وجهِ الأرض، وأنَّ الآخَرينَ لَيسوا بجودتِه واستحقاقِه؛ وكلُّ هذه التصوُّراتِ

ص١٧٠. وكذلك، أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج٢، ص٣٤٠.

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ج٦، ٣٣٤٨.

٢ - مسعود أنصاري، ناسيوناليسم ومبارزات ضد استعمارى [القومية والنضال ضد الاستعمار]، ص٣٢.

٣ - مرتضى مطهري، خدمات متقابل اسلام و ايران [خدمات إيران والإسلام المتبادلة]، ص٢٢.

ناجمــةٌ عن الأنانيّة وحبِّ الذّات.[1] يقول الله -تعالى- في الآية: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَالِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ**﴾[الروم، الآية ٢٢]، فاللهُ في القرآن الكريم يُعدِّدُ اختلافَ الألوان والألسنة بجانب آياته الأخرى، ويَعدُّها علامات للعالمينَ والمُفكِّرينَ ليُدركوا قدرةَ الخالق. في الواقع، إنَّ اختلافَ اللُّغات هو أحدُ علامات القُدرة الإلهيّة؛ لأنَّه علَّم أو ألهَمَ كلَّ مجموعة لغةً، ســواء العربيّة أو الفارسية أو التُّركية وغيرها، لكي يتميَّزَ أهلُ كلِّ لغةٍ في التكلُّم؛ بحيثُ إذا تحدَّثَ عددٌ منهم خلفَ حائلٍ ما، يُدركُ المُستمعُ أنَّ الصَّوتَ الأوَّلَ غيرُ الثاني والثانيَ غيرُ الثالث.[2] ولاختلاف اللِّسان في هذه الآية عدَّةُ احتمالات؛ إمّا أنَّ المُرادَ هو اختلافُ الكلمات، أو قد يكونُ المُرادُ اختلافَ اللَّهجات، وقد يكونُ الاختلافُ في نبرة الصَّوت؛ لأنَّ اللُّغةَ تختلفُ بين مَدينةٍ وأُخرى، أو حتّى بينَ قريةٍ وقريةٍ مجاورة.[3]

لا يَهــمُّ في أيٍّ من الحالات المَذكورة أعلاهُ ما المَقصودُ؛ المُهمُّ هــو أنَّ اللهَ يُوضِّحُ اختلافَ اللُّغة باعتبارها آيةً من آيات قدرته للعُلماء، ويَعرضُ هذا الاختلافَ باعتباره طريقًا للتَّفكير لأولئكَ الذين يَتفكَّرونَ، لا أن يكونَ الاختلافُ بين المُفردات واللُّغات واللَّهجات ونبرة الأصوات مَدعاةً لتميُّزِ فئةٍ على فئةٍ أخرى أو قريةٍ على قريةٍ مُجاورةٍ لها أو تَفوُّقها عليها.

ثانيًا: الأموالُ والأبناء ليسوا معيارًا للتَّفضيل

مــن بين دوافع التَّفاخُــر بين الناس المالُ والــثَّروةُ وكَثرةُ الأولاد. فالغُــرورُ النَّاتج عن الثَّروة والعَدد الكبــير يَجعلُهم يَقعون في الرَّذائــل الأخلاقيّة، ويَظنُّونَ أنْ لا أحدَ يَســتطيعُ مُواجهتَهم، حتى إنَّهُم يَعدُّونَ أنفسَهم في مَنأًى عن عذاب الرَّبِّ، ويَقولون: ﴿**نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[ســبأ، الآية ٣٥]. إنَّهم يَعدُّونَ الفــلاحَ والنَّجاحَ فقط في امتلاك المال والأولاد الكثيرينَ، ويَرَونَ أنَّ المالَ والأبنــاءَ دليلٌ على كرامتهم ومَنزلتهم عندَ الله، ويَقولون: نحنُ دائمًا نَنعم بهــذه الكرامة، وإذا كان هناكَ عذابٌ فلن نُعذَّبَ. لكنّ اللــهَ يَردُّ على هذا المَنطقِ المُخادعِ

---

١ - جواهر لعل نهرو، نامه‌های پدری به دخترش [رسائل والد لابنته]، ص١١٧.

٢ - حسين بن أحمد حسيني شاه عبد العظيمي، [تفسير اثناعشري]، ج١٠، ص٢٨٤.

٣ - محمد حسين، طباطبايي، تفسير الميزان، ج١٦، ص٢٥٠-٢٥١؛ أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ج١٩، ص١١٧.

بأعلى صورة في الآيات الآتية من السُّورة نفسها، ويقول: مسألةُ الرِّزق، أي الأموال والأولاد، قِلَّتُها وكثرتُها بيد الله، يُوسِّعُ أو يُضيِّقُ على مَن يشاء. وأموالُكم وأولادُكم ليسَت شيئًا يُقرِّبُكم إلى الله، إلا مَن آمنَ وعملَ صالحًا. فاللهُ يَعدُّ الإيمانَ والعملَ الصّالحَ مِعيارًا للقُربِ عندَه والاستحقاقِ للجزاء.[1]

في الواقع مَن يَعملُ صالحًا بماله ووَلده، فيُنفقُ مالَه في سبيل الله، ويُروِّجُ ويَنشرُ به الإيمانَ والعملَ الصّالحَ بينَ الآخَرينَ، ويُربيِّ أولادَه تربيةً دينيّةً، سيَنالُ أجرًا مُضاعَفًا.[2] في بعض الأحيان، لا يَعدُّ الأفرادُ المالَ والولدَ فقط سببًا للتَّفضيل، بل يَتفاخَرونَ بالأمواتِ أيضًا، ويَتباهَونَ بكثرةِ قُبورِ مَوتاهُم في المَقبرة، ويُظهرونَ تفوُّقَهم. وقد وردَ في سورة التكاثر (١-٢) أنَّ الكفّارَ كانوا يَقولون للرَّسول ﷺ: نحنُ نتباهى بأموالنا وأولادنا وسنَتغلَّبُ عليكم. لذلك، جادلَهم اللهُ القديرُ، وقالَ إنَّ أموالَكم وأولادَكُم ضَئيلةٌ أمامَ الله. ويُفهَم من هذا أنَّ أموالَ الكُفّارِ وأولادَهم لن تُغنيهم في الدُّنيا والآخرة. بمعنى أنَّه لو جمعَ الكفّارُ أموالَهم وأولادَهم ليَفتَدوا أنفسَهم ولينْجَوا من عذاب الله فلن يُقبَلَ ذلكَ عندَ الله، وهذا ليس دليلاً على تفضيل أفراد على أفراد آخَرينَ. في الآيات: ﴿**أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ**﴾[القلم، الآيات ١٤-١٦].

يَذمُّ اللهُ تعالى المالَ والثَّروةَ ويَقول: إنَّ المالَ والثَّروةَ يُسبِّبان في أن يَعدُّوا الآيات الإلهيّةَ خرافاتِ وأساطيرِ الأوَّلينَ، ولكنَّ اللهَ في جوابه يَضع وَسمًا على أنفِ القائلِ ليَفهَم أنَّ المالَ والأبناءَ تَسبَّبوا في أنْ يُمرِّغَ أنفُه في التُّراب لا أن يكونَ سببًا لتكبُّره وعَظمته. وفي موضعٍ آخَرَ، يُخبرُ عن أنَّ الأموالَ والأولادَ فتنةٌ ووسيلةُ امتحان[3]، ويُنبِّهُ الإنسانَ بتَعبيراتٍ مُختلفةٍ إلى عدمِ التعلُّقِ بالمال والأولاد، وإمكانيّةِ الانحرافِ بسببِهم. ومن ذلك:

---

١ - ﴿**قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ سبأ، الآية ٣٦.
﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاء الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ سبأ، الآية ٣٧.

﴿**وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُوْلَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ**﴾ سبأ، الآية ٣٨.
٢ - محمد حسين طباطبائي، تفسير الميزان، ج١٦، ص٥٨٠.
٣ - الأنفال، الآية ٢٨؛ التغابن، الآية ١٥.

إمكانيّـةُ مشـاركة الشَّـيطان في مـال الإنسـان ووَلَـده: ﴿**وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾[الإسراء، الآية ٦٤].

الإفـراطُ في طلـب الزِّيـادة في المـال والوَلَـد وآثـارُه السَّـلبيّة: ﴿**وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ**﴾[الحديد، الآية ٢٠].

إشـغالُ الوالدِ بالولدِ والمالِ عن ذكرِ الله: ﴿**لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾[المنافقون، الآية ٩].

عدمُ إغناءِ الأموالِ والأولادِ في القِيامة: ﴿**لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ**﴾[آل عمران، الآية ١٠][١].

يَنبغي أن تكونَ الأموالُ والثَّروةُ والأبناءُ سَـبيلاً لبُلوغِ السَّعادة للإنسان، لا أنْ تُوقِعَه في وَرطةِ المَعصيةِ، والقرآنُ في الآيات المَذكورةِ أعلاهُ يُحذِّرُ الإنسانَ من هذه النُّقطة.

من جملة عواملِ الترفُّـع والتَّعالي: القوّةُ والثَّروةُ، والقرآنُ يَطرحُ أمثلةً على ذلك. ومنها: ذِكرُ قصّة فرعونَ وقارونَ في هذا الشّـأن؛ حيثُ تسبَّبَتْ ثَروتُهما وقوّتُهما في تكبُّرِهما واستعلائهما. واللهُ -تعالى- في الآيتين ٤٥ و ٤٦ من سـورة المؤمنـون يَروي قصّةَ تكبُّرِ فرعونَ بهذه الصُّورة: ﴿**ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ* إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ**﴾، تُبيِّنُ هذه الآياتُ أنَّه عندَما أُرسل موسى وهارونُ إلى فرعونَ، استكبرَ فرعونُ وقومُه ورَفضوا أن يُطيعوا شـخصَين من بَني إسرائيلَ.[٢] إنَّ استعلاءَ فرعونَ أوصلَه إلى حدٍّ جَعلَه يَقول لموسى: ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾[الشعراء: ٢٨].

في الواقـعِ، إنَّ ثروةَ فرعونَ وقوّتَه أوجدَتا فيه تكبُّرًا واسـتعلاءً، جَعـلاهُ يَنزعُ لقتلِ إله مُوسى؛ حيثُ قال لوَزيره هامان: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ**﴾، لقد جعلَ الفراعنةُ الآخَرينَ عَبيدًا ومُطيعينَ لهم، تمامًا كما جَعلوا بَني إسرائيلَ عَبيدًا لهم.[٣]

في مثال آخَرَ يَذكرُه القرآنُ لأصحاب السُّـلطة والثَّروة، يُشيرُ إلى قصّة قارونَ. وقد وردَت قصّتُه في سورة القَصص. كانَ قارونُ رجلاً عالِمًا من بَني إسرائيلَ، اجتهدَ في جمع الثَّروة، وامتنعَ عن الإحسانِ

١ - محسن قراءتي، تفسير النور، ج٤، ص٣٠٧ - ٣٠٨.
٢ - السيد عبد الحسين الطيب، أطيب البيان فى تفسير القرآن، ج٩، ص٤٠٥.
٣ - محمد حسين، طباطبايي، تفسير الميزان، ج١٥، ص٤٦.

إلى المُعوزيـنَ ودَفـعِ الزَّكاةِ لمُوسى، وحصلَ على ثـروةٍ وقوّةٍ عظيمـة[1]. وكانَ غارقًا في هذا المالِ والمتَـاعِ إلى درجة أنَّه أمامَ تحذيرِ النّاصحـينَ الذين كانوا يَقولون له: لا تَفرَحْ بالمـالِ والثَّروةِ، فاللهُ لا يُحـبُّ مثلَ هذه الفَرحةِ التي تَبثُّ لديـكَ الغَفلةَ، وينبغي لك أن تنالَ نصيبًـا من هذا المالِ وتُعمِّرَ به آخرتَكَ، وكما أحسـنَ اللهُ إليكَ فأحسِنْ ولا تُفسـدْ، إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُفسدينَ، لكنَّه قالَ وهو في حالة الغرور نفسـها والتكبُّرِ النّاجمِ عن ثَروته الطّائلة: ﴿**قَالَ إِنَّمَـا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي**﴾، وليس من شـأنكَ كيفَ أتصرَّفُ بثَروتي. هنا، يُقدِّمُ القرآنُ ردًّا قاصمًا لقارونَ وأمثاله ﴿**أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَـكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَـدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا**﴾، أنـتَ تقولُ إنَّ ما لَديكَ قد أتاكَ لعلمٍ لَديكَ ومَعرفة، والخطابُ لقارونَ، ولكنَّكَ نَسيتَ أنَّ هناكَ مَن هُم أعلَمُ منكَ وأقوى منكَ وأكثرُ ثَراءً، فهل اسـتطاعُوا النَّجـاةَ من قبضةِ العقابِ الإلهيِّ؟ وفي نهايةِ الآيةِ، يُقـدِّمُ له تَحذيرًا آخرَ بجُملة قصيرةٍ ومُعبِّرة، ويَقول: عندَ نُزولِ العَذابِ الإلهيِّ، لا يُسـألُ المُجرمونَ عن ذُنوبهم. ﴿**وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ**﴾، لا مجالَ أبدًا للسُّؤالِ والجَوابِ، فهو عذابٌ قاطعٌ ومُؤلمٌ وقاصمٌ ومُفاجِئ.[2]

في الرُّؤيةِ القرآنيّة، يُمكنُ أن تكونَ القوّةُ والثَّروةُ عاملَينِ للنُّموِّ أو الفسـادِ للبَشرِ والمُجتمعاتِ البَشريّة. لذلك، هي سـلاحٌ ذو حدَّين يَجب التَّعامُلُ معَها بحذرٍ شَـديد. إذا كانَت القوّةُ والثَّروةُ في أيدي غيرِ المُؤهَّلينَ، فقد يُؤدِّي ذلك إلى فسـادِ الشَّخصِ أو المُجتمع؛ كما أنَّ القوّةَ والثَّروةَ يُمكنُ أن تُفسـدَ حتى أهلَ الإيمانِ والتَّقوى. والعلومُ الدِّينيّةُ والوَحيانيّةُ تتمتَّعُ أيضًا بهذهِ القُدرة. يَذكر القرآنُ كيفَ أصبحَت العلومُ الإلهيّةُ في أيدي أشخاصٍ مثلِ (السّامريِّ) و(بلعم بن باعوراء) قوّةً تَسري في اتِّجاه الفَسادِ والإفسادِ في المُجتمع.

للقوّةِ والثَّروةِ مُتطلَّباتٌ يُمكنُ الإشـارةُ إليها بصفتها ثقافةَ القوّةِ والثَّروة. بمَعنى أنَّها تُصاحبُ نظامًا يَضع الإنسـانَ في فضاءٍ خارجَ الفَضاءِ الطَّبيعيِّ. أولئكَ الذين يَغرقونَ في السُّلطةِ والثَّروة، يَتبنَّونَ في عَمليّةٍ ما خصائصَ وسُـلوكياتٍ يُشارُ إليها بثقافةِ الأرستقراطيّة أو ثقافةِ المُتغطرسينَ. في هذه الثَّقافة، يَفقدُ الشَّـخصُ نفسَـه ويَجد هويّـةً جديدةً ومُختلفة. في هـذه الثَّقافةِ والهويّة، يُصبحُ التَّفوُّقُ والتَّباهي أمرًا طبيعيًّا، ويُصبحُ تَحقيرُ الآخَرينَ وإهانتُهم عَملاً جائزًا ومُباحًا. أولئكَ

١ - القصص، الآية ٧٦.
٢ - ناصر مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج١٦، ص١٥٢.

الذيــن يَنمونَ في ثقافة القوّة والثَّروة هم أولئكَ الذينَ يترَسَّــخُ فيهم انعدامُ التَّقوى[1] وتتعزَّزُ روحُ العُدوانيّــة والتمرُّد.[2] في هــذه الثَّقافة والبيئة المُلوَّثــة، يُصبحُ التَّباهي بالكماليــات دأبًا وعادةً، ويَسعى الشَّخصُ جاهدًا لإظهار مُمتلكاته للآخَرينَ والتَّفاخُر بها كلَّ يوم.[3]

والدِّيــنُ بصفته عُنــصرًا من الانتماءات المُشــتركة للنّاس، يَلعــبُ دورًا كبيراً من جهة في تَقسـيم المُجتمعات الإنســانيّة وتَمييزها بعضها عن بعض، وتَوحيدها من جهة أخرى. لدرجة أنَّ أحدَ أسباب الصِّراع الشَّــديد القائم بــينَ المَســيحيّة واليَهوديّة وعَواملها هــي عقائدُهما الدِّينيّــة. وقد أدَّت هذه العَداوةُ الدِّينيّةُ إلى انفصال عرقيٍّ، كانَ في البداية طَوعيًّا ثمَّ أصبحَ قَسريًّا، ونتيجةً لذلك، ظهرَت أوَّلُ مَنطقة يَهوديّة في عام ١٥١٦م. كما نجمَ عن الانقســام العرقيِّ بطبيعــة الحال تفاقُمُ الاختلافات في طريقــة اللِّباس وآداب الحياة وعلامات الوَجه وطُقوس العبادة وطَريقة الكلام فيما بينَهم. وأدَّت هذه الخلافاتُ بدَورها إلى إثارة مشــاعر انعدام الثِّقة والخوف المُتبادَل فيما بينَهم أيضًا، ومن هذا الخوف تولَّــدَ الكُرهُ. كان اليهودُ يَجعلــونَ حرمانَهم من الزَّواج بالمَســيحيّات يَبدو كأنَّــه شرفٌ عَظيمٌ. كانوا يَحتقرونَ المَســيحيِّينَ بكونهم مُشركينَ خرافيِّينَ وبَطيئي الفَهم إلى حدٍّ ما، ويُغطُّونَ عُنفَهُم وقَسوتَهم بلغة ناعمة وماكرة، ويُشعلونَ حروبًا أهليّةً. كما كان المَسيحيُّونَ يَحتقرونَ اليهودَ لأنَّهم يَعدُّونَهم كفّارًا غُربــاءَ وغاصبينَ. نقــلَ (Thomas More-توماس مور) عن امرأة مؤمنة أنَّها عندَما ســمعَت أنَّ مريمَ العَذراءَ من أصلٍ يَهوديٍّ، شــعرَت بالضِّيق الشَّــديد واعترفَت بأنَّها لم تعدْ تَســتطيعُ عِبادةَ أمِّ المَسيح بنفس الإخلاص والشَّوق السّابقَين.[4]

ويُبيِّنُ اللهُ -تعالى- استعلاءَ اليهود بقولهم: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾[البقرة، الآية ٨٠]، وهــو يتحدَّثُ عن اعتقادهم الخاطئ، ولكنْ على الرَّغــم من أنَّ العذابَ لن يَضرَّهُم إلا لبضعــة أيّام، حســبَ قولهم، لكنّهــم لا يَجرؤونَ على تمنِّي الموت ولقــاء الله. أو في الآية: ﴿**قُلْ إِن كَانَــتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّــاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صادِقِينَ**﴾[البقرة، الآية ٩٤]، يقولُ اللهُ لرسوله: قلْ لهم: إذا كانَتِ الدّارُ الآخرةُ خالصةً لكم عندَ

١ - القصص، الآيتان ٧٦ و٨٣.
٢ - القصص، الآيتان ٧٦ و٨٣.
٣ - مرتضى مطهرى، خدمات متقابل اسلام و ايران [خدمات إيران والإسلام المتبادلة]، ج٢، ص١١٢ .
٤ - ويل دورانت، تاريخ تمدن [تاريخ الحضارة]، مج٦، ص١٤٩-١٥٠.

الله دونَ النّـاسِ، فتَمنَّوا الموتَ إن كنتُم صادقينَ، لكنَّهم لا يتمنَّونَ الموتَ أبدًا. في الواقع، هُم لا يَعدُّونَ الدِّينَ معيارًا للتفوُّقِ فحَسب، بل يَستخدمونَ المَفاهيمَ الدِّينيّةَ مثلَ الآخرةِ لصالحِهم. وفي آيةٍ أُخرى، يَعدُّونَ اليهودَ والنَّصارى أبناءَ اللهِ وأحبّاءَه، ويَمنحونَ لأنفسِهم امتيازًا لا أساسَ له (المائدة: ١٨). والمرادُ من اختيارِهم لهذا الاسمِ واللَّقبِ لأنفسِهم هو الادِّعاءُ بتَمتُّعِهم بعلاقةٍ خاصّـةٍ معَ اللـهِ.[١] ولكنَّ اللهَ يُجيبُهم في تتمّةِ الآيةِ نفسِـها: إذا كنتُم أبناءَ اللـهِ وأحبّاءَه، فلماذا يُعذِّبُكم اللـهُ بذُنوبكُم؟ أليسَ الأبُ عَطوفًا على ابنِه، أو الصَّديقُ مُشـفِقًا على صَديقِه؟ فيُقِرُّونَ بأنَّهم سيُعذَّبونَ، ولكنْ لأيامٍ قليلةٍ فقط.[٢]

ومـن المعاييرِ الأخـرى للتفوُّقِ المَنطقةُ الجغرافيّـةُ التي يَعيشُ فيها بعضُهم، كما أنَّ الشُّـعورَ بالتَّضامُنِ يَنشأ بسببِ العَيشِ في أرضٍ مُعيَّنةٍ ومُوحَّدة، ومن أجلِ الحفاظِ على تفوُّقِ الأرضِ، تُشعَل الحروبُ وتُسـفَكُ الدِّماءُ. وفي هذا المَسـارِ، فإنَّ الأُمم التي استوطنَت قطعةَ أرضٍ قبلَ غيرِها من الأُمم تَعدُّ نفسَها صاحبةَ حقِّ الأولويّةِ في ملكيّةِ تلكَ الأرضِ، ولا تَزالُ فكرةُ حقِّ الأولويّةِ في الأرضِ التي يَقطنُها الفردُ تلعبُ دَورًا مُهمًّا في صِراعاتِ الأُمم حولَ الخِلافاتِ الإقليميّة.[٣]

ثالثًا: الغُرور والتكبر

أحدُ أُسُـسِ العُنصريّةِ هو الغُرورُ والتكبرُّ. التكبرُّ هو حالةٌ يَرى فيها الإنسـانُ نفسَـه أكبرَ من الآخَريـنَ[٤]، وأكبرُ الكِبرِ هو الكِبرُ على الله، وهو أن يمتَنـعَ عن قَبولِ الحقِّ منه،[٥] وهذه الصِّفةُ مـن الرَّذائلِ والصِّفـاتِ القَبيحةِ للعَبد؛ لأنَّ العبدَ ذليلٌ وفقيرٌ ومَملـوكٌ وضَعيفٌ، ولا يَليقُ به أن يتكبرَّ.[٦] وعندَما يسألُ اللهُ الشَّيطانَ عن عدمِ سُجودِه لآدمَ، فإنَّه يتوسَّلُ بعُذرٍ غيرِ وَجيهٍ ويَقول: ﴿**أنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقْتَنى من نارٍ وخَلَقْتَهُ من طينٍ**﴾[الأعراف، الآية ١٢] . فاللهُ أخرجَه من حضرتِه

١ - ناصر مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج٤، ص٣٢٩.
٢ - البقرة، الآية ٨٠.
٣ - مسعود أنصاري، ناسيوناليسم و مبارزات ضد استعماری [القومية والنضال ضد الاستعمار]، ص٢٥.
٤ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ج١، ص٦٩٧.
٥ - الراغب الأصفهاني، مفردات في غريب القرآن، ج١، ص٦٩٧؛ محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، ج٥، ص١٢٧.
٦ - حسن مصطفوي، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم ، مج١٠، ص١٩.

الإلهيّة بسبب هذا التمرُّد، وبيَّنَ للشَّيطان سببَ هذا التنزُّل والسُّقوط بقوله: ﴿**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا**﴾[الأعراف: الآية ١٣]: لا يَصحُّ لكَ أن تتكبَّرَ فيها. فاللهُ لم يَطرُد الشَّيطانَ فقط بسبب عصيانه، بل إنَّ الكبرَ أيضًا كان سَببًا في هُبوطه،[١] وكلُّ شقاء الشَّيطان كان وليدَ كبره، فهذا الكبرُ جعلَه يَضعُ نفسَه في مَقام أعلى ممّا يَستحقُّه، وأصبحَ في النِّهاية من الصّاغرينَ ﴿**إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾[٢]، وبَدلاً من العَظمة نالَه الذلُّ والهَوانُ[٣] .

التَّمييزُ هو من الأسُس الأخرى للعُنصريِّينَ. وهو الفرقُ الذي يَشعُرُ به النّاسُ بسبب العِرق أو اللَّون أو الدِّين أو اللُّغة أو الطَّبقة بينَ أنفسهم والآخَرينَ، وقد آذى كثيراً من النّاس على مرِّ التاريخ؛ لدرجة أنَّ كثرةَ الآلام التي عانَوا منها قد تَفتقرُ للعلاج بأيِّ دواء، ودائمًا ما كان البَشرُ بينَ قُطبَين سَلبيٍّ وإيجابيٍّ لنَظريّة التَّمييز، ففَريقٌ يُدافعُ عنها بحَزم وفَريقٌ آخَرُ يُحاربُها بسَالة. وبشكلٍ عامٍّ، التَّمييزُ هو وضعُ قيودٍ بمُوجب القانون أو الآداب أو العادات والتَّقاليد أو عقد غير رَسميٍّ ضدَّ مجموعة مُعيَّنة، مثل مَجموعة دينيّة أو عرقيّة. وأسوأُ أنواعه هو التَّمييزُ العُنصريُّ، الذي يُعَدُّ نظامُ جنوب إفريقيا السّابقُ مثالاً بارزًا عليه. لكنَّ الإسلامَ يتحدَّثُ في مُواجهة هذه النَّظريّة الخاطئة عن المُساواة، ويَدعو جميعَ النّاس إلى دين واحد ونظام واحد يَستندُ إلى الفطرة والطَّبيعة البشريّة ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَالِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الروم، الآية ٣٠].

لقد ثبَّتَ اللهُ مكانةَ الإنسان في القرآن الكريم بأفضلِ وَجه، فقد عُرض الإنسانُ بل جميعُ البشر في القرآن بصَفتهم أبناءَ رجلٍ وامرأة يتوالدونَ ويُصبحونَ قبائلَ وعَوائلَ كثيرةً، ولا يُرجَّحُ أيُّ فرد من هؤلاء على الآخَر، بل هُم إخوةٌ، إلا أنْ يَقوموا بعملٍ رائق وحَسَن، ويُظهروا صَلاحًا وإحسانًا[٤]. بعدَ مدّة مَديدة على نزول القرآن أُعلن ميثاقٌ في العام ١٩٦٣ يتحدَّثُ عن إلغاء كافّة أنواع التَّمييز العُنصريِّ، وصادقَت عليه الجَمعيّةُ العامّةُ في الأمم المتَّحدة.

١ - محمود الآلوسي، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم ، ج٤، ص٣٣١.
٢ - الأعراف، الآية ١٣ .
٣ - ناصر مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج٦، ص١٠٦ .
٤ - الحجرات، الآية ١٣ .

نتيجة البحث:

١. إنَّ الاستعلاءَ والتكبُّرَ والتَّمييزَ هي الأسُـس والدَّعائمُ الرَّئيسةُ للتَّمييز العُنصريِّ، التي تمَسَّكَ بها العُنصريُّونَ على مرِّ التّاريخ.

٢. عوامـلُ الأفضليّة والتفوُّق برُؤية البـشرِ عبارةٌ عن العِرقِ ولونِ البَـشرةِ واللُّغةِ والمالِ والثَّروةِ وكَثرةِ الأولادِ والمَنطقةِ الجغرافيّةِ والدِّين.

٣. يَرى القرآنُ الكريمُ ضمنَ نَقده لكلٍّ من أُسس العُنصريِّينَ أنَّ أساسَ خَلقِ البشرِ هو أمرٌ مُشتركٌ وناجمٌ عن رجلٍ وامرأة، ويُبيِّنُ أنَّ البشرَ قد خُلقوا من مادّة مَذرة لا تُبقي حاجةً لتفـوُّق عرقيٍّ لأيِّ أحد. كما يَعدُّ القرآنُ الاختلافَ باللَّون واللُّغةِ من عَلائم قُدرةِ الله، وأنَّ الجَعـلَ الإلهيَّ لقبائلَ مُختلفةٍ مَردُّه التَّعارُفُ بينَها. وقد أشـارَ القرآنُ إلى عواقبِ التكبُّرِ ونتائجه، ورَفَضَ أيَّ نوعٍ منه. ويَذمُّ القرآنُ الكريمُ التَّمييزَ أيضًا، وهو أحدُ أسُس العُنصريِّينَ الأخرى ويُفنِّدُها.

٤. المَعايـيرُ الحقيقيّةُ للتفـوُّق برُؤية القرآن هـي التَّقوى والإيمانُ والإيثـارُ والتَّضحيةُ والجهادُ، وهكذا يَفضُلُ فردٌ على آخرَ بنسبةِ ما لَديهِ من فضائلَ إنسانيّةٍ ورُوحيّةٍ مُتجليّةٍ لَديهِ.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- أبو علي فضل بن حسن الطبرسي، مجمع البيان فى تفسير القرآن، ترجمه بالفارسية أحمد أميرى شادمهري، ط. أولى، طهران، دار فراهاني للنشر، ١٩٨١.
- جرجي، زيدان، تاريخ تمدن اسلام [تاريخ الحضارة الإسلامية]، ترجمه بالفارسية علي جواهر كلام، لامكا: مؤسسة أمير كبير للطباعة، ١٩٥١.
- جواهر لعل، نهرو، نامه‌هاى پدرى به دخترش [رسائل والد لابنته]، ترجمه بالفارسية محمود تفضلي، طهران، دار أمير كبير للنشر، ١٩٥٧.
- حسن، مصطفوي، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، طهران، مركز ترجمة الكتاب ونشره، ١٩٨١.
- حسين بن أحمد، حسيني شاه عبد العظيمي، تفسير اثناعشري، طهران، دار ميقات للنشر، ١٩٨٤
- السيد عبد الحسين الطيب، أطيب البيان فى تفسير القرآن، ط. الثانية، طهران، دار الإسلام للنشر، ١٩٩٩.
- علي أكبر، دهخدا، لغتنامه دهخدا [قاموس دهخدا]، طهران، مطبعة جامعة طهران، ١٩٦٢.
- علي، حجتي كرماني، اسلام و تبعيضات نژادى [الإسلام والتمييز العنصري]، دار شركة النشر المساهمة، ١٩٨٢.
- محمد باقر بن تقي، المجلسي، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار عليهم السلام، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠١ ق.
- محمد حسين، طباطبائي، تفسير الميزان، ترجمه بالفارسية محمد باقر موسوي همداني، ط. الخامسة، قم، مكتب النشر الإسلامي لجامعة المدرسين في حوزة العلمية في قم، ١٩٩٥
- محمد، حسينى شيرازى، تبيين القرآن، چاپ دوم، بيروت، دار العلوم، ١٤٢٣

- محمود، الآلوسي، روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٥
- مرتضى، مطهرى، خدمات متقابل اسلام و ايران [خدمات إيران والإسلام المتبادلة]، ط. العشرين، طهران، دار صدرا للنشر، ١٩٩٤.
- مسعود، أنصاري، ناسيوناليسم و مبارزات ضد استعمارى [القومية والنضال ضد الاستعمار]، طهران، ٢٠٠٥.
- منوتشهر طباطبايي مؤتمني، آزادى‌هاى عمومى و حقوق بشر [الحريّات العامّة وحقوق الإنسان]، طهران، مؤسسة النشر والطباعة في جامعة طهران، ١٩٩١.
- ناصر، مكارم، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ط. أولى، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٩٩٥.
- نصرت أمين، أصفهاني، مخزن العرفان در تفسير القرآن، طهران، حركة النساء المسلمات، ١٩٨٢.
- ويل، دورانت، تاريخ تمدن [تاريخ الحضارة]، ترجمه بالفارسية پرويز مرزبان، دار إقبال بالتعاون مع دار فرانكلين للنشر، ١٩٦٦.